صيف 2015
ISSN: 2013\1590489

رؤية تركية

الثورة السورية في عامها الرابع

أفق أولوتاش، كيليتش بوغرا كانات، جان أجون، سنان حتاحت، أحمد رمضان، فادي شامية، يافوز قوتش تورك

الثورة السورية في سياقَيْها الإقليميّ والدوليّ
مازن موفق هاشم

الموقف الأمريكي من الثَّورة السُوريّة
عزت السيد أحمد

الحضور الإيراني في الأزمة السورية: قراءة تحليلية
محجوب الزويري

تنظيم الدولة والمقاتلون الأجانب في سورية
عبد الله زيزان

الثورة السورية في سياقَيْها الإقليميّ والدوليّ

مازن موفق هاشم
باحث سياسي

ملخص

الزلزال السوري هو حدث إقليمي بامتياز. وصحيح أن فاعليات الثورة الأكثر صرامة تبدو وكأنها تحدث ضمن الحدود السورية، غير أن ارتدادات الزلزال هدّدت كل الدول المجاورة لتشكّل فاعليات إضافية تعود وتنعكس على مركز الثورة في أرضٍ اسمها سورية، فتستمر هذه الحلقة التفاعلية في تغيير طبيعة الصراع ومرتكزاته. وضمن هذا الفهم، يقوم هذا المقال برصد الانزياحات الإقليمية في منطقة المشرق. وهذه الانزياحات بدورها تتفاعل مع تغيّر وضع راعي المنظومة العالمية لفترة ما بعد الحرب العالمية: الولايات المتحدة الأمريكية.

يبدأ التحليل بمناقشة موضع الولايات المتحدة في المنظومة الدولية، وأوجه الوهن الذي أصابها في صُعدٍ مختلفة يضيّق خياراتها. ويجري هذا في سياق تحوّل العالم إلى عالمٍ متعدّد الأقطاب. ويلقي المقال لمحةً مختصرةً عن القطب الصيني والهندي والروسي، وقطب أمريكا اللاتينية الذي ليس من طبيعته تجاوز حدوده، وعن القطب الهندي المرشّح أن يلعب في الفعاليات الدولية دور بيضة القبّان فحسب، وعن القطب الروسي المتآكل، وعن قطب أمريكا اللاتينية المنعزل. ويخلص إلى مناقشة القطبين المشرقيين المهمّين: تركيا وإيران اللذين سوف يحدّدان مسيرة المنطقة العربية برمّتها، ويتركان الأثر الأكبر في القضية السورية. ولا يفوت الورقة أن تُلمح إلى إسرائيل على أنها قطب تتناقص قدراته باستمرار، فيندفع إلى أدوارٍ تندرج تحت إستراتيجية الأرض المحروقة لشراء الوقت في غياب امتلاكها لمشروع ناضج. وتضمّ المناقشة قطبًا جرى وصفه بأنهَ سالبٌ، وهو القطب العربي، وهو سالبٌ بمعنى أنه في لحظة تحرريّة لا يمتلك فيها قدرة على مواجهة مجموع القوى التي تحاصره، ولكنه قادرٌ على منع ما يتعارض مع ما أفرزه الربيع العربي من مستجدّات.

ينتقل المقال بعد ذلك لعرض الموقف العالمي من الربيع العربي، الذي هو حقيقةٌ تفرض نفسها وحدثٌ تاريخيّ فاصل، بغض النظر عما تمخّض عنه الحراك في المدى القصير والمباشر. ويعود المقال عند

رؤية تركية
2015 - 14
26 - 7

هـذه النقطـة ليناقـش القضيـة السـورية على أنها جهد تغييريّ يتحـدّى التصميم الأقلّوي والطائفي لمنطقة المشرق العربي في فترة ما بعد الاسـتعمار، وليقـدّر الخيـارات الأمريكية في المسـألة الشـامية بعد أن وصلت إلى وضعٍ في غاية التعقيد.

يقوم هـذا المقال بتحليل وضـع المنظومة العالميـة التـي تقودهـا الولايـات المتحـدة الأمريكية في وجه حركة خروج العالم المسلم، وهي محاولة خروج من الهامشية نحو المركز، واسـتعادة للعافيـة الحضاريـة، مثّلته محطّات عديـدة في العقـود الماضيـة. وكان يمكننا أن نجعل نقطـة البداية وعلّامـة الصعود ظهور أعلام مفكريـن هضموا النتاجين الحضاريين الغـربي والمسـلم في آن واحـد، لكـن آثرنا أن نبقـى قريبين من عالم السياسـة. وكان يمكن اعتـماد وصـول الاعتـدال الإسـلامي إلى سـدّة الحكم في دولة محورية مثـل تركيا نقطةً للبدايـة. وكان ممكنًا اعتماد الثـورة الإيرانية، أو ضربـة برجَـي نيويـورك نقطـة بدايـة لاسـتهدافهما اسـتقرار المنظومة العالمية، لولا أنّ مـشروع كلٍّ منهما ليس توجهًا نحو الأمة، إذ يسـتبدل الأول بالأمـة الطائفـة ويسـتبدل الثـاني بها الجماعة. ومن ثَمّ ظهر الربيع العربي علامـةً فارقةً لضخامة كمونـه التغيري الذي مـا تـزال تتفتّـق تبعاتـه. واخترنا مـن الربيع العـربي عقدته الشـامية؛ لأنهـا الموضع الذي إن حُسـم فيه التغيير كان لـه تأثيرٌ بالغٌ في كل المـشرق العربي. وليس مرجـع هذا الاختيار هو محـض ميل عاطفي للكاتب مدفوع بفخر انتـماءٍ، ولكـنّ لأن الثورة السـورية: (1)هي ثورة لأرض الشـام كلها، هشّـمت التصميم الاسـتعماري عقـب الحـرب العالميـة؛ (2) ولأنها ترتبط بالقضية الفلسـطينية ارتباطًا لا يفصلـه إلا حجـابٌ رقيق؛ (3)ولأنها تُفسـد صيغـة التحكّم بقلـب منطقة المـشرق، تلك

الصيغة التي تعتمد على استئساد الأقليات غير المسلمة؛ (4) ولأنها بعد سقوط بغداد أصبحت الموقف الذي يُفسد الانسياح الفارسي؛ (5) ولأنها بوابة الكمون التركي ليلتقي مع البرعم العربي فيشكلان مزدوجة تسترجع الحضور المسلم في الحقل المتوسطي. وتغطي هذه المعالجة ثلاثة أبعاد: طبيعة المنظومة العالمية تحت الرعاية الأمريكية، والتراجع النسبي للوزن الأمريكي عالميًّا، وتغيّر تقييمها لحلفائها، وظهور عالم متعدّد الأقطاب، ورغبة المنظومة العالمية في تحقيق توازن ذاتي في قلب المشرق العربي وجواره.

أولًا: موضع الولايات المتحدة في المنظومة العالمية

تشكّلت المنظومة العالمية الراهنة وفق رسم الصعود الأوروبي بعد اكتمال ملامحه في القرن التاسع عشر، وحدث هذا على حين غرّة من الوجود المسلم الذي كانت ترعاه إمبراطوريتان زاحرتان: الإمبراطورية العثمانية في القلب المسلم وغربه، وإمبراطورية المُغل في المشرق المسلم ولما أصاب الإعياء المشروع الاستعماري الأوروبي، جاء الدور الأمريكي ليجدّد المشروع، ويعطيه سماته الخاصة، بعدما كانت أمريكا تخمّر قواها وتعاظمها في قارة معزولة عن العالم ومشكلاته وسنقوم فيما يأتي بتحليل وضع المنظومة الغربية في تجلّيها الأمريكي، مفترضين أنّ الولايات المتحدة الأمريكية ما زالت تمثّل ضامنة المشروع الحضاري الأوروبي، ومفترضين أيضًا أن ألمانيا لا يمكنها حمل هذا العبء، وأنّ روسيا تراجعت إلى قوة إقليمية هي مهمّة لكن ليس بوسعها لعب أدوار عالمية فاصلة، بل محاولة هذا هو مما يُضعفها ولا يقوّيها.

إنّ قوة رائد المشروع الأوروبي –الولايات المتحدة الأمريكية– وقدرته نسبةً إلى غيرها من دول العالم– هي في تناقص مستمرّ. ومن أجل توضيح هذا من غير مبالغة وإطلاق للتمنيّات سنذكر لمحةً عن مستند القوة الأمريكية، وبعد ذلك نرصد تناقص وزنها النسبي ومحدّدات هذا التناقص.

1 – نمط جديد لدولة عالمية

الولايات المتحدة الأمريكية –كدولة– نموذجٌ فريدٌ في تاريخ البشرية. فصحيح أن عهد الإمبراطوريات ولّى (من ناحية بنيوية) إلا أنها تشبه الإمبراطوريات في مداها، وفي آن معًا هي دولة متشكّلة وفق النموذج الحداثي: دولة–شعب. وتتمثل الصفة الأولى في نزعة للتوسّع والسيطرة على كل شيء قريب أو بعيد، وتتمثل الصفة الثانية بالعقد الدستوري في شؤونها الداخلية.

الثورة السورية ثورة لأرض الشام كلها، هشّمت التصميم الاستعماري عقب الحرب العالمية وارتبطت بالقضية الفلسطينية ارتباطًا لا يفصله إلا حجابٌ رقيقٌ

وفي حين تميّزت الإمبراطوريات القديمة باحتوائها على شعوب متعددة ضمن كيانات عندها اعتماد ذاتي برغم التبعية للإمبراطورية– فإنّ النسق الجديد هو صيغة ترابط عولمي يمشي إلى جانب استقلالية قانونية للدول التي تشكّل المنظومة. فالصيغة

الحديثة التي يُطلق عليها اسم (المنظومة العالمية) تحوي مركزًا ترتبط بسياساته دولٌ تدور في مدار القوة المركزية. وتبدو الدول الدائرة في الفلك تامّة الاستقلال، وهي كذا لأنها معترف بها بصفتها دولة في منظمة الأمم المتحدة، ولأنّ لها دستورها الخاص وجيشها الخاص ومؤسساتها الخاصة وثقافتها الخاصة،

الولايات المتحدة الأمريكية هي راعية النظام الدولي بعد الحرب العالمية الثانية، وهي التي كانت قد صمّمته بالاشتراك مع دول أوربية. ولهذا النظام أبعاد عدة لا تقتصر على الناحية السياسية، بل له بعد اقتصادي مهمّ جدًا

ولأن جميع هذا يسري ضمن حدود جغرافية محددة.

ومن ناحية أخرى، الدول المستقلّة تابعة لدول المركز –إلى درجة ما– بفعل القوى الجاذبة والطاردة التي تجعل الأولى تدور في مسرى له حدوده الضيقة أو الواسعة. الولايات المتحدة الأمريكية هي راعية النظام الدولي لما بعد الحرب العالمية الثانية، وهي التي كانت قد صمّمته بالاشتراك مع دول أوربية. ولهذا النظام أبعاد عدة لا تقتصر على الناحية السياسية، بل له بعد اقتصادي مهمّ جدًّا.

يتحكّم المركز في الخصائص العامة للمنظومة من غير أن يكون بوسعه أن يتحكّم في تفاصيله أو أن يفرض ما يريده دومًا. والدول الراكضة في المدار عندها قدرة على المناورة بحسب تمكّنها الذاتي، ولديها جملة خيارات تستطيع الانتقاء منها. والتمكّن الذاتيّ للدول له وجه مادّي ملموس وآخر ثقافي اعتباري. وأوضح ما يمثّل الوجه المادي هو الاستقرار السياسي نتيجة فاعلية مؤسسات الدولة، وموضعها الجيوسياسي المحظوظ. وقوة اقتصاد البلد بعدٌ آخر في الوجه المادي، وتتمثّل هذه القوة لا في حجم الاقتصاد بقدر ما هي: (1)في اكتفائه الذاتي في الأمور الأساسية: الأمن الغذائي والمائي؛ (2)وفي عدم اعتماديته الخارجية ولو كان متكاملًا مع الخارج؛ (3) وفي قدراته الإبداعية التي تملك قدرة التأقلم مع التغيّرات؛ (4)وتأتي القوة العسكرية في المرتبة الأخيرة من القوى المادية المهمة، وليست العبرة في حجمها المطلق، وإنما أيضًا في مناسبتها للتحدّيات، فضخامة الجيش قد تستنزف الطاقات وتبتلع السياسي.

2 – الاقتصاد

ويمثل الاقتصاد الأمريكي المحرّك الذي يمدّ المنظومة بما يلزمها من قدرة التحرّك. وهذه الدولة محظيةٌ بثروات طبيعية هائلة، ولم تنل يدُ الإنسان قارّتَها بالاستغلال إلا لقرن ونصف فحسب. بحيراتٌ وأنهارٌ وجبالٌ وسهولٌ وغاباتٌ ومعادنُ مكنوزة وثرواتٌ أخرى تبدو لعين الناظر أن لا نفاد لها. غير أنه ما كان للموارد وحدها أن تسبّب التمكين، فالعامل الحاسم هو أنه يقبع فوق هذه الثروات شعبٌ ماهرٌ مدرّب. فالشعب الأمريكي بشكل عام مهني على مستوى عالٍ من الكفاءة الفنية فيما يقوم به، وهو يطوّر مهاراته باستمرار، علاوة على إنتاجيته المرتفعة. ويضاف إلى

ذلك مـوردٌ رخيصٌ للعمالة فيـما حاذى البلد جنوبًـا، يغطي احتياجـات البلد في الخدمات البسـيطة. والشـعب الأمريكـي كـذا برغـم أنـه لا يوصف بالمسـتوى العالي مـن الثقافة، بمعنـى المعرفة الواسـعة والعمـق الثقافي، مما يؤهله أن يتحوّل إلى آلة إنتاج فحسـب. وإلى جانب هذا المخـزون الكبير من المقدرة الفنّية العملية الماهرة هناك ثللٌ فائقةٌ في إبداعها [3]. وتحتضن منظومة الشغل في أمريكا هذه الثلل وتوفّر لها أسباب الانتاج، إلى جانب اجتذابها الإمكانات المتفوّقة من العالم أجمع، وهو أثمن ما "تستورده" كما يقال.

3 – القوة العسكرية

وكانت القوة العسكرية للولايات المتحدة الأمريكية سببًا من أسباب التمكّن. ويضاف إلى ذلـك على المسـتوى الجيوسـياسي محيطان يحرسـان هـذه الدولـة القلعة المنيعـة ،. ثم ما لبثت أن صارت هذه القوة تاريخيًّا على صعيد القارة/ الدولة مسـتند السطوة الخارجية التي جلبـت مزيـدًا مـن الأمريكـي الشـمالي ذي الثقافة المشـابهة و عدد السـكان القليل الذي لا يمثّـل تهديـدًا، وجـارٌ آخـر جنـوبي كانت الولايات المتحدة الأمريكيـة قد هزمته فوقّع معاهـدة استسـلام، وكان ذلـك قبـل النكبة الفلسـطينية بمئة سـنة. وكأنّ تمكّـن المنظومة الأمريكيـة في مركز العالم الجديـد احتاج قرنًا كاملًا ليتمكّن في مركز العالم القديم.

وهكذا اجتمعت لدولة الولايات المتحدة الأمريكيـة أربعـة أركان للتمكّـن: غنـى لا نظير له، ومهارات تشـغيلية فائقة، وتشـكيلة سياسية مكّنتها البراغماتية من التبلور، ومنعة جيوسياسية وقوة عسكرية ضاربة.

4 – القوة الناعمة

وإذا كان ما سـبق كافيًـا للتمكّن الداخلي والإقليمـي، فـإنّ النفـوذ العالمـي لأمريـكا سرى من خلال قوتهـا الناعمة. فقد نتج عن اجتماع الرغد والقوة نموذج في غاية الإغراء، جرى تسـويقه بنجاح باهر. وهكذا أضحت السيطرة الثقافية للولايات المتحدة الأمريكية أمضى أسلحتها، يفتح لها الناسُ أبوابها مُقبلةً مُتلهّفة [4].

أمـا الوجه الثقـافي للتمكّـن فيتميّز بأمور غـير ملموسـة، منهـا: شرعية الحكـم في نظر المحكومين، وعدم وجود مجموعات ساخطة لهـا عصبيّتها الخاصة بها، ومسـتوى المهارات الـذي يتمتع به الشـعب، إضافة إلى السـمعة والصيت الحسـن عالميًّا، والنظـر إلى المجتمع على أنـه "راق". وإن قوّة الـدولار الأمريكي تعـود إلى هـذًا لا إلى رصيـده الحقيقـي الذي أصبـح "افتراضيًّا"، ولعلنـا لا نبالغ أن إنتاج هوليـوود نفسـه لـه دور مهـمّ في اسـتدامة الانطبـاع تجـاه قـوة هـذه الدولـة وإغـراء نموذجها [5].

والصيـت الثقـافي والمنزلـة العاليـة قـوة حقيقيـة نسـتطيع تتبّع آثارها. ومن المناسـب هنـا التذكير بمثال جزئي له دلالة كبيرة. مرّة قـام فتى أمريكـي مراهق باسـتخدام البخاخ الملوّن لكتابة عبارات على السـيارات. وفعل هذا في بلد لـه قوانينه الاجتماعيـة الصارمة– وهـو سـنغافورة. وكانـت العقوبـة بحسـب القانـون هـي تلقـي الضربـات بعصـا كبيرة عـلى قفا مرتكب الإسـاءة. ومـلأت الإعلامَ الأمريكـي التقاريـر التـي تصوّر بـداءة هذه العقوبـة [6] ، وتدخّلـت حكومـة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، ومارسـت أنواعًـا مـن

الضغـوط، ولكن العقوبة كانـت قد تقرّرت بحكـم قضائـي؛ ونُـفّـذ الحُكم بعـد تخفيف عـدد الضربات. المثـال شـديد الدلالة؛ لأن سـنغافورة بلد صغير جدًّا، وهي ليست دولة قوية عسكريًّا، واقتصادها معتمد على اقتصاد الولايـات المتحدة الأمريكيـة ومتكامل معه. ما كانت سنغافورة تملكه هو الصيت فقط... صيت مجتمع مرتّب، ومدن نظيفة، ومستوى منخفض من الفساد الإداري.

ثانيًا: أوجه الوهن الأمريكي

مـا أردناه من المقدمة هـو تحديد النواحي التي علينا رصدهـا في تقدير القوة الأمريكية والنواحـي التـي أصابهـا تراجـع. ويمكننـا تأكيـد أنّ التراجع أصـاب كل أوجه التمكّن الأمريكـي. فصحيـح أنّ القـوة العسـكرية الأمريكية هي الوحيدة التي تتصف بالعالمية، حيث تطوف قواتها أرجاء المعمورة، وعندها القـدرة على تدمير ما يعترضها، إلا أنها تحوي عوامل ضعفهـا. والمفارقة أنّ الاتقان الفائق والحجـم الضخـم للقـوات الأمريكية جعلا تكاليف هذه القوة في تصاعد مسـتمر. ومن الأمثلة على ذلك، تبلغ الكلفة اليومية للعملية اليسيرة نسبيًّا التي تقوم بها قوات "التحالف" في سـورية والعـراق ما بـين 7 إلى 10 ملايين دولار في اليـوم الواحـد [7] . وهكـذا، وبسـبب التفـوّق الهائل في القدرة العسـكرية الـذي قطـع الأمـل بإمكانيـة الاقـتراب من هـذه الدولـة- أصبـح أمضى طـرق مواجهة القـوة الأمريكيـة هـو "المواجهـة اللاتماثلية" (asymmetrical). واكتشـفت القـوى المسـتضعَفة هـذا الأمـر، ولم يعـدْ سرًّا بـين المتخصّصين [8] .

التراجع أصاب الاقتصاد الأمريكي أيضًا. فالالتـزام بأولويـات المجتمـع على المسـتوى

المحلّي زال، وأصبحت حركة الاقتصاد بيد الشركات الضخمة التي لها أولويات طاعنة في الأنانية. والنظام الرأسمالي للولايات المتحدة ذاتي النمو، لا يقف في وجه آلته عائق إلا حاولت ابتلاعه أو مصاحبته مصاحبةً نفعية. ومن هنا كانت العلاقة الاقتصادية مع الصين، فالصين ليست صديقًا خلّاً وإنما لها علاقة ندّيّة مع الولايات المتحدة الأمريكية، وليس التفاهم المؤقت بينهما إلا مناورات. ثم إنّ الرأسمالية المنفلتة تبثّ بذورها مثل النباتات الطفيلية. وهكذا نبتت في كثير من الدول الأنماط الجديدة للإنتاج، ولم تقفْ عند الاستهلاك، وأصبحت منافسة الاقتصاد العملاق حقيقة. والنتيجة النهائية هي أنه تراجعت نسبة ثقل حجم الاقتصاد الأمريكي وإنتاجه مقارنة بالإنتاج العالمي. ولقد استغرق هذا التطوّر عدة عقود، فمثلًا في منتصف السبعينيات انخفض حجم الدخل القومي لولايات المتحدة الأمريكية إلى أقل من ضعفي حجم الدخل القومي الروسي، في حين كان أكبر منه بثلاث مرات وزيادة في سنة 1950، وكذا وصل إلى أقل من أربعة أضعاف الدخل القومي الألماني في حين كان أكبر منه تسعة أضعاف في الفترة نفسها. أما مقارنة بالدخل القومي لليابان، فقد انخفض إلى أقل من ثلاثة أضعاف في حين كان أكبر منه باثني عشر ضعفًا في الفترة نفسها [9].

حكمة السياسة الداخلية تراجعت أيضًا، وأصبحت المنظومة الأمريكية عصيّة على التجديد. فقد تحوّلت عملية السجال الديمقراطي الذي يُفترض منه أن يكتشف ويلتقي عند نقاط الوسط... تحوّل من هذا الوضع النظري ليصبح السجال مناكفةً فئوية بين الحزبين الجمهوري والديمقراطي يتراشقان حلولًا غير متّزنة؛ والشاهد على ذلك الموافقة على الميزانية العامة والإغلاق المتكرر للحكومة. وينتج عن هذا الاستقطاب السياسي العجز عن الوصول إلى القرار الحكيم أو القيام بمستلزماته، إلى جانب تعاظم الأحمال الاقتصادية بسبب تضارب الأولويات.

الاقتصاد الأمريكي الضخم هادرٌ ومعتلّ في آنٍ معًا. ورغم أنّ الظاهر هو نجاح الاقتصاد الأمريكي في تجنّبه حالة الركود وعودته البطيئة للنمو، إلا أنه لم ينجُ منها لاستناده إلى أسس اقتصادية سليمة بقدر الاستفادة من ثقة مستثمرين أجانب ما زالوا مولعين بسمعة أمريكا

والاقتصاد الأمريكي الضخم هادرٌ ومعتلّ في آنٍ معًا. ورغم أنّ الظاهر هو نجاح الاقتصاد الأمريكي في تجنّبه حالة الركود وعودته البطيئة للنمو، إلا أنه لم ينجُ منها لاستناده إلى أسس اقتصادية سليمة بقدر الاستفادة من ثقة مستثمرين أجانب ما زالوا مولعين بسمعة أمريكا. القدرة الإبداعية ما زالت قاعدة صلبة للاقتصاد الأمريكي، والرساميل التي يمكن أن تجنّد للمشاريع الضخمة متوافرة في الداخل وتصبّ من الخارج [9]، وميزة وجود عمالة رخيصة من دول الجوار تميّز كمون اقتصادها مقارنة باقتصاد الدول الأوروبية. إلا أن فقاعات الاستثمار، وارتكاز الأسعار على الوهم، وصناعة الانطباع، وتحوّل النشاط الاقتصادي إلى إدارة مالية بحتة في الأوراق

والسجلات على نحو غير متسق مع حقيقة الإنتاج...- تجعل الرأسمالية الأمريكية التي أضحت عملياتها توصف بأنها "رأسمالية التمويل"[11] غير محصّنة من الانهدامات القطاعية.

الثقافة هي المعقل الأمريكي الأخير الذي يفقد بريقه باستمرار، داخل وخارج الولايات المتحدة الأمريكية، وإن لم يزل لها وزن معتبر. فالثقافة التي كانت محاطة بأغلفة من المثالية والكمال ظهرت ضحالتها. وهذا وضع شاذّ من الناحية التاريخية، فالولع بتقليد بعض الأنماط الأمريكية لا يترافق ضرورة مع احترام هذه الثقافة، ولا مع حبّ صاحبتها. وربما أحد أسباب هذا هو انكشاف الإشكال القيمي لهذه الثقافة الرائجة.

كان هذا وصفًا مختصرًا لوضع الدولة التي تسمى أمريكا، وللأوجه التي تراجع فيها وزنها نسبةً إلى بقية بلدان العالم، ونسبةً لما كانت عليه لعقود خلت. والعاقلون في الولايات المتحدة الأمريكية يدركون التطورات التي حلّت بهذا الكيان ومنظومته، وإن كانوا يختلفون في تحديد وجهة الحلول وطبيعتها[12].

لا خلاف في أنّ الوزن النسبي للولايات المتحدة الأمريكية قد تراجع، والفهم التفصيلي لذلك مطلوب من أجل إحكام التعامل مع هذه الدولة. لكن على المرء ألا يغرق في التمنّي، فلن تستطيع الصين ولا الهند ولا اليابان ولا ألمانيا ولا البرازيل أخذ مكانها؛ (لأسباب ليس هنا مكان تفصيلها). المعنى العملي للتراجع النسبي لوزن الولايات المتحدة الأمريكية هو أنها لم تعد تملك القوة الحاسمة على جميع الصُعد، باستثناء الصعيد العسكري، الذي يتكئ أصلًا على غيره من الصُّعُد، والذي لا يحالفه النجاح إذا تخلّفت أبعاده السياسية. بعبارة أخرى، القوة العسكرية الأمريكية عندها قدرة هائلة على القهر ولا يتصوّر هزيمتها في ساحة المعركة، ولكن يصعب عليها الانتصار.

الثقافة هي المعقل الأمريكي الأخير الذي يفقد بريقه باستمرار، داخل وخارج الولايات المتحدة الأمريكية، وإن لم يزل لها وزن معتبر. فالثقافة التي كانت محاطة بأغلفة من المثالية والكمال ظهرت ضحالتها. وهذا وضع شاذّ من الناحية التاريخية،

تدرك الإدارة الأمريكية هذه التطورات، وتدرك مراكز الدراسات هذا بشكل أكثر وعيًا. ولأنّ التراجع النسبيّ قدرٌ تاريخيٌّ لا مفرّ منه، تحاول الجهود الأمريكية أن يكون الانسحاب منظّمًا يحفظ لهذه الدولة قدرًا وافيًا من القوة. وكانت بريطانيا قبلها قد انسحبت من سؤددها المطلق، مدركةً أنها إن لم تفعل فسوف تتحطّم، فاحتفظت بأعظم ما يمكنها من نفوذ، وقلّصت تمدّدها المفرط. وهذا ما تحاول بعض الأطراف الأمريكية (العاقلة من وجهة النظر الوطنية) فعله. ويدرك الرئيس أوباما الوصف أعلاه إدراكًا تامًّا، ويسعى إلى أن يُخلَّد في التاريخ على أنه الرجل الذي أنقذ الإمبراطورية من التحطّم. وبعيدًا عن مناوأة بعض منافسي الرئيس والتي تستعرض امتعاضها من سياسة أوباما الخارجية، فإن الاعتراض موجّه نحو طريقة

معالجة أوباما، لا نحو أصل التوجّه الذي يتجنّب الغرق في مشكلات العالم الخارجي.

غير أنّ تقليل مدى ضغط الالتزامات السابقة لهذه الإمبراطورية الشاذّة والتخفيف من أحمالها الخارجية أمرٌ إشكاليّ في ذاته بسبب طبيعة المنظومة العالمية. وتكمن الورطة الأمريكية في أنّ انسحابها في لحظة صعود غيرها من القوى يتجاوز الحدّ الذي يُمكن أن تقبل به المنظومة التي ترعاها هي بنفسها. فمثلًا حين قلّصت بريطانيا وفرنسا فرط امتدادهما، لم يكن ثمة منافس مقتدر غير المنافس الأمريكي الذي حمى المشروع الحضاري الأوروبي، ومكّنه من الاستمرار، في حين أننا في لحظة تاريخية مختلفة حضاريًّا اختلافًا كاملًا، فالشرق الخامل على صعيد الإنجاز هو زاخرٌ على الصعيد الفلسفي والخلقي، وقد ملّ وتفجّر مَلَلُه في ثورة عربية شاملة –على درجات متفاوتة من النضوج– يصعب تصوّر تلاشيها [13] لأنها متجذّرة في الضمير الحضاري ولا يمكن اختزالها في مظاهرها السياسية.

ثالثًا: عالم متعدّد الأقطاب

لقد بدأ العالم تحوّله إلى التعدّدية القطبية برغم ما قد يبدو من الانفراد الأمريكي [14]. وهو يميل إلى هذه الصيغة باطّراد. الدلائل تشير إلى أن الاختناق الأوربي سوف يطول، وهو ما يؤثر في التمكّن العالمي الأمريكي [15]. روسيا القيصرية التي تبدو صاعدة تعاني من مشكلات اقتصادية أصلية، ولا يسعفها إلا نفطٌ وغازٌ تسعى الدول التي تستهلكهما أن تتخلّص من القيد الاحتكاري لروسيا. غير أن لروسيا امتداد دِيمُوغرافي وثقافي في محيطها، وله جذور تاريخية وشرعية دينية، ولا يمكن انتزاعه، ولذلك ستبقى روسيا في المدى المتوسّط قطبًا من الأقطاب، عندها المعرفة العسكرية، والإمكانيات العلمية المتطورة، بالإضافة إلى مالٍ رخيص مدفونٍ في الأرض، ولكنه قطبٌ مكبّلٌ من داخله بمنظومة مليئة بالعُقد التي تحول دون فاعليته. كما أنه مهدّد في داخله بسبب التحولات الديموغرافية.

ونناقش فيما يلي أهم هذه الأقطاب، بما في ذلك الصين والهند، والكتلة الأوروبية، وكتلة أمريكا الجنوبية، وكتلة البلدان العربية.

1 - الصين

الصين تتابع تمكين نفسها في منطقة جنوب شرق آسيا، فتركيزها منحاز لتلك المنطقة بسبب وجود الجدارين الهندي والمسلم من الجهة الغربية والجنوبية الغربية. وما يحاذي الصين من الناحية الشرقية دول مقتدرة، أو فيها قدر كبير من الاستقرار، وللولايات المتحدة الأمريكية علاقات متميزة جدًّا مع هذه الدول منذ ضرب الحزام حول التمدّد الشيوعي، ولكن كوريا الشمالية تمثّل للصين مسمار جحا الذي يمكن توظيفه عند اللزوم. ولا يضير الصين كون هذه الدول مقتدرة، بل لو كانت غير ذلك لشكّلت مصدر قلاقل. ويمكن لدول الحوض الذي تطلّ عليه هذه الدول أن تشكّل رئاتٍ للصين على الصعيد التكنولوجي أو الإبداعي؛ وحالة هونغ كونغ هي النموذج الكامل في ذلك، غير أن الدول الأخرى المحيطة تقوم بهذا الدور أيضًا. وإنّ الوضع الأمثل للصين هو أن تُبقي هذه الدول علاقاتها الجيدة مع الولايات المتحدة لتكون موردًا لما هو غير متوفّر في الصين، وإن

تدخل هـذه الدول في الوقت نفسه في المدار الصيني بـدل الأمريكي/ اليابـاني، بحيـث تنقلب علاقاتها مع المحـور القديم إلى علاقة شـعاعية وفق الحاجة الآنية لا علاقة مدارية. وهذا هو السـياق الجيوسـياسي للتنافس على بحـر الجنـوب الـذي يمثّـل شريانًـا للتجارة الدوليـة البحريـة. فالنفـوذ في بحـر الجنوب ذو أثر ثلاثي، أحد أطرافه اقتصادي، وطرفه الآخـر عسـكري، ويتعلّـق بحريـة جـولان الأسـاطيل الأمريكيـة التي هـي معقل قوتها العالمية، وطرفه الثالث يتعلّق بتشـكيل المدار الصيني/ الجنـوب شرق آسـيوي الـذي تـمّ الحديث عنه.

أمـا مـن الناحيـة الاقتصاديـة البحتـة، فسـوف تتابع الصـين صعودهـا ولكن ببطء شـديد، فالأغلب أن عقـود النمو السريع قد قاربت على الأفـول، أو أنه ليس من مصلحة الصـين المتابعة في النمو على نفس الوتيرة. كما أن التحـوّل إلى الاعتماد الكامل على التصدير إلى الاعتـماد عـلى السـوق المحلّي بعد تشـكّل طبقـة وسـطى يصـبّ في صالـح الاسـتقرار الاقتصـادي للصـين، وإن صاحبـه نمو أبطأ مـن قبـل. وعـلى كل حـال، يتوقّـع أن تعاني الصين مما يعانيه أي نظام رأسمالي من دورات الهبـوط والصعـود والتَضخّـم والتقلّـص. وتفتقـر الصـين، مقارنـة بالولايـات المتحدة الأمريكيـة إلى الموارد الطبيعيـة، كما تفتقر إلى عمالـة رخيصـة. ورغم أن الصـين أخرجت في القـرن المـاضي الملايـين مـن دائـرة الفقر، ورتّبـت هجرة كثير منهم نحو المدن من أجل العمالـة، غير أنه لا خيار لها إلا أن "تسـتعمر" شرائح من شـعبها مـن أجل اسـتمرار النمو الاقتصادي السلعي.

والخلاصـة، تعـرف الصـين حدودهـا، وجلّ ما تريده هو أن تأخذ مكانها الطبيعي في العالم، وسوف تصل إليه بالتدريج، ولا تعرقل الظـروف الخارجية الصعود بقـدر ما تعرقله التحديـات الداخلية، وهذا النمـو التدريجي يزيـح الولايات المتحـدة من مكانهـا المنفرد، ويضطرهـا إلى التعامـل مـع الصـين بصفتها قطبًـا دوليًّـا لا يمكـن تجاهله. بقـي أن نقول إن ثمة شرطًـا ثقافيًّا على الصين أن تنجح فيه كي تتكّمن من تكملة مشـوارها، هذا الشرط هو مقاومة الخطاب الليبرالي لحقوق الإنسان التي تسـتغلّه الولايـات المتحـدة الأمريكية، وأن تنجح في نسـج خطـابٍ بديلٍ متّصلٍ مع التراث الصيني.

2 - الهند

وضـع الهنـد أقـل اسـتثنائية مـن وضـع الصين برغم كمونها النظري الكبير، وتواجه تحدّيـات مختلفـة عـلى الصعيديـن الداخـلي والخارجـي. ففـي حين أنّ التحـدّي الداخلي للصين هو مقاومتهـا للديمقراطية الليبرالية، واسـتمرار قناعة الشعب الصيني بأنّ الوضع القائـم هو الأفضل، أو هو المناسـب للصين، فإن التحدّي الداخـلي للهند هو ذات نظامها الديمقراطـي. ولا مـراء في أن إحـكام القبضـة الأمريكيـة على الخيوط التي تمسـك بهـا الـدول المختلفـة تتعلّـق طردًا مـع توغّل مزدوجـة الرأسـمالية/ الديمقراطيـة في تلك الدول: الرأسـمالية غير المقيّدة والديمقراطية المتمحورة حـول الحقوق الفردية. ولا يمكن أن ننسـى الشرذمـة الفُرقيـة واللغويـة في الهنـد، ولذلـك لم يكـن مفاجئًا عـودة اليمين إلى المسرح السـياسي، فهو الـذي عنده قدرة متميّـزة عـلى التجميـع، ثـم انتـكاس هـذه

التجربة بعد تزاوجها السافر مع الرأسمالية، الأمر الذي يولّد تناقضات داخلية. كما أن الشرذمة على المستوى الاجتماعي تؤثر في إمكانية إطلاق المشروعات الجامعة الكبيرة ذات الأولويات الوطنية، تلك المشروعات التي يمكن أن تغيّر موضع الهند عالميًّا تغيرًا نوعيًّا، خلاف المشروعات الصغيرة التي قد تحسّن الموقع العالمي لبلدٍ ما، ولكن لا ينتج عنها ثقل إستراتيجي.

ولا يعني هذا أنّه لا يمكن للهند أداء أدوار عالمية، بل هي تقوم بهذا فعلًا. كل ما في الأمر أنّ الأدوار المرشح أن تلعبها الهند تعتمد بشكل رئيس على انتهاز الفرص، ووضع ثقلها في مشروعات قوى عالمية أخرى. ومن ذلك مثلًا سعيها حديثًا لتوثيق علاقاتها مع فيتنام. ويمكننا القول إنّ الدور الهندي لن يرتكز على الإنجازات المحلية المتأرجحة بقدر ارتكازه على أداء دور بيضة قبان دولية في التنازع الأمريكي الصيني الروسي. وكذلك يمكنها أن تطرح نفسها بصفتها قوة كبيرة بجوار الدول المسلمة في الهضبة الآسيوية، إضافة لدورٍ مزدوج يمكن أن تؤدّيه بخصوص إيران.

3 - القطب الروسي

القطب الروسي يستمرّ في تراجعه برغم مظاهر انتعاشه وعودته إلى مركز الأحداث العالمية. والذي نشهده من التنافس الغربي الروسي ليس حربًا باردة، وإنما هو تعديلات في اصطفافات أطياف المنظومة الغربية. وكان ممكنًا للتراجع الروسي أن يكون أكثر حدّة لولا أنها تقبع على بقعة جغرافية واسعة تحظى بموارد نفطية ضخمة،

القطب الروسي يستمرّ في تراجعه برغم مظاهر انتعاشه وعودته إلى مركز الأحداث العالمية. والذي نشهده من التنافس الغربي الروسي ليس حربًا باردة، وإنما هو تعديلات في اصطفافات أطياف المنظومة الغربية

وتمتلك الشرطين اللازمين لاستغلال الموقع والمصادر الطبيعية: الخبرة الفنية لشعب عال في مستوى تعليمه والقوة العسكرية. غير أنّ الاقتصاد الروسيّ يعاني معاناة بنيوية، فهو قد زاوج بين متناقضين: الرأسمالية والقيصرية. ويضاف إلى ذلك التحدّيات الديموغرافية التي تواجهها روسيا من ناحية تناقص عدد البيض ذوي الثقافة الروسية المحضة، والتزايد المستمر للمسلمين. صحيح أن الامتدادات الثقافية/ البشرية لا تزال تمدّ روسيا بقوة عملية على الأرض (أوكرانيا وأرمينيا مثلًا)، لكنها خلاف ذلك معرّضة للخلخلة مع الزمن؛ لصعود قوى مناوئة في محيطها الجغرافي (يمكننا اعتبار تصعيد نبرة أذربيجان في وجه أرمينيا مثالًا على ذلك). ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الصين ليست حليفًا لروسيا وإنما بينهما التقاء مصالح قريب الأجل يتعلّق جلّه بالموقف من الولايات المتحدة الأمريكية. العملاقان الصين والهند -على الرغم من قلّة التنسيق بينهما- هما في المدى البعيد أقرب لبعضهما من قرب كل منهما إلى روسيا.

4 - قطب منعزل

أما دول أمريكا اللاتينية فقد حجزت لنفسها مكانًا وسطًا في علاقتها مع العملاق الشمالي. فمن ناحية، لا تشكّل دولها تهديدًا

مباشرًا للولايات المتحدة الأمريكية، ولاسيما مع عدم وجود الانسجام الكامل بين سياسات البرازيل و الأرجنتين. وكتلة أمريكا اللاتينية هي قطب من ناحية التبادل الاقتصادي مع الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ناحية مساحاتها الواسعة التي لها تواصل جغرافي مع الولايات المتحدة، إلى جانب العمق الديموغرافي الذي هو في آنٍ واحد سدّ يحمي من الاستحواذ الكامل ومصدر للعمالة. وبذلك تشكّل أمريكا اللاتينية قطبًا منعزلًا إلى حدٍّ كبير، له أثرٌ لا يمكن تجاهله، وله حدودٌ لا يمكن تجاوزها. موضعه الجيوسياسي محظيّ، ويوفّر عليه التعامل مع كثير من التلاطم العالمي، غير أنّ ذلك في آنٍ يبدّدُ تأثيره خارج حدوده. ويضاف إلى ذلك موقف ثقافيّ تجاه الولايات المتحدة رافضٌ غير معادٍ.

لدى تركيا مشروع إقليمي منسجم مع روح العصر وعاقلٌ في مراقبة التوازن العالمي للقوى، ولكن تركيا لا تملك كل وسائل مشروعها الطموح، وازهار الربيع العربي يمنحها وسائل ثمينة لا توازيها حتى بلاد الأقوام التركية في جنوب غرب آسيا

5 - القطبان المشرقيان

في المحيط المشرقي قوتان إقليميتان، تركيا و إيران، إلى جانب إسرائيل. تركيا قوة صاعدة مشاركة اقتصاديًّا في المنظومة العالمية، تقيّد خياراتها حاجتُها للطاقة من أعدائها. والأهم من ذلك وجود تناقضات حادّة في محيطها تهدّد أمنها القومي، بما في ذلك المسألة الكردية داخل تركيا وعلى تخومها. وتحتاج هذه المرحلة إمساكًا بالحكم قوي القبضة، وتنحية للمطالب الأنانية التي تمرّرها الآلة الديمقراطية في السياق العالمي الثقافي الليبرالي المعاصر.

عند تركيا كمون مشروع إقليمي منسجم مع روح العصر وعاقلٌ في مراقبة التوازن العالمي للقوى، ولكن تركيا لا تملك كل وسائل مشروعها الطموح، وإزهار الربيع العربي يمنحها وسائل ثمينة لا توازيها حتى بلاد الأقوام التركية في جنوب غرب آسيا.

أما إيران فتشهد حالة نشوة غامرة. فقد وصل الإمام الفقيه إلى سدّة الحكم لأول مرة في تاريخ التشيّع. ناصب العالمُ الغربي العداءَ للمشروع الإيراني، وكذلك الدول العربية، وعلى رأسها دول الخليج. واستطاعت إيران الصمود والصعود. هكذا تنظر إيران إلى نفسها، وعندها ثقة عارمة هي مصدرٌ لقوّتها وموضعٌ لمنزلقاتها في آن واحد. فلقد اجتمع في الحالة الإيرانية التعصّب القومي مع الطائفيّة الدينية، وكلّ من هذين العنصرين كاف بنفسه للدفع نحو الغطرسة والمغامرة. ولمَ لا تثق بنفسها وتطمع بالمزيد والخذلان العَربي للقضية الفلسطينية مكّن إيران من المتاجرة بها، كما مكّنت الصيغة الطائفية للنظام السياسي اللبناني من الاستحواذ على هذا البلد الذي يعجز عن الدفاع عن نفسه في الحالة الاعتيادية. ثمّ مكّن الهياج الأمريكي في العراق سيطرة إيران على بغداد مستغلّةً ضعف التشكّل السياسي للكتلة العربية السنيّة ولاسيما أن لكُرد العراق أجندة سياسية مستقلة. وكان قد مكّن التصميم الطائفي لبلاد الشام الذي رعته فرنسا إمكانية السيطرة الفارسية على دمشق، كما

أفسح الترهّل السعودي قدرًا من السيطرة الإيرانية على صنعاء، والانسحاب الأمريكي القريب من أفغانستان (وإن لم يكن كلّيًا) يسمح لإيران بتعزيز نفوذها في كابول.

وعلينا أن نفترض أن امتلاك إيران للقدرة النووية، بما في ذلك القدرة العسكرية، هو مسألة وقت فحسب، بغض النظر عن بنود أي اتفاق سيبرم، أو بنود يجري التفاهم حولها. غير أن التحدّي الذي يواجه إيران هو ضبط طموحها كيلا تقع في حالة فرط الامتداد (overextension).

والتصريحات المتتالية لقادة إيران تجاه السيطرة على عدة عواصم عربية تحكي نوعًا من الكِبْر في توجّه السياسة الإيرانية، وكأن التناقض المكشوف في الموقف تجاه الربيع العربي خرج من حيّز التَّقية الواعية إلى حيّز غشّ النفس غير الواعي. ففي بداية الربيع العربي عدّته إيران استمرارًا أو استجابة للثورة الإيرانية، ولكنه حين وصل إلى سورية صار مؤامرة خارجية، وكذا الموقف من اليمن. وأي عجز عن فهم الربيع العربي أنه منعطف تاريخي وليس مجرد حدث سياسي، وأنه مرحلة مبكّرة في حال خروج الأمة وليس غضبة شعب عابرة بسبب ظروف سيئة... إن هذا العجز عن فهم حركة الربيع العربي على هذا النحو وسكبه في بوتقة قومية أو طبقية أو طائفية [16]، أو الخلط بين أسسه الدفينة من جهة، وما تمخّض عن (تمظهراتها) من جهة ثانية، أو اعتبار الصراع الدولي والإقليمي في أرض سورية حربًا بالوكالة- تلغي أصل الثورة... إن مثل هذا الوقوف الجاهل الساعي إلى صدّ قوى التاريخ ليس غريبًا عندما يصدر عن الدكتاتوريات العربية، ولكنه أمرٌ عجيبٌ عندما يصدر عن جهةٍ لم يمضِ على ثورتها إلا بضعة عقود، مما يحتّم تلاشيَ الجهود التي تقف في وجه إرادة الأمة. صحيح أن مقولة استنزاف إيران فيها مبالغة، حيث إنها ما زالت تحتفظ بقواتها، وتزجّ بالشيعة العرب وغير الإيرانيين ليدفعوا ثمن طموحها الإمبراطوري، إلا أنّ قدرة إيران على إدارة ملفّات متعدّدة في آنٍ واحد غير ممكن، سواء أنطلقَ الردّ على مستوى الدولة (كما حدث في حالة اليمن)، أو بقي ممانعة شعبية من قِبل جموع التوجّه الأممي (=السُنّي) الذي هاله الضخّ الطائفي ورفضَ مصدره الإيراني وارتداداته الخارجة عن النسق الجامع للأمة.

أما إسرائيل فتعاني تناقصًا كبيرًا في قيمتها الإقليمية برغم كل الخيوط التي تمسك بها، فمن جهة تُداخلها نقاط ضعف بنيوي على الصعيد الديموغرافي وفي الانحباس الجيوغرافي، ومن ناحية أخرى أصبحت كلفتها كبيرة بالنسبة للراعي الأمريكي الذي أصبح يصعب عليه تسويغ دعمها غير المشروط. إسرائيل دولةٌ فاشلةٌ بهذا المعنى، وليس في أفقها إلا التخريب والإجرام كل بضع سنين لتنقض ما شيّده العرب. وقد انتكس مشروعها إلى البدائية: استيطان لتؤمّن الحواجزُ البشرية حدودَها، والتشجيع على سياسة الأرض المحروقة حولها إذا زال فيها الاستبداد الذي كان يسيطر عليها، ولو أن دخان ذلك قد يخنقها.

6 - القطب السالب

تمثّل كتلة الدول العربية قطبًا من نوع آخر. والبديهة تفكّر عادة في الأقطاب بما لها

من كمونٍ وقوةٍ على سبيل الإيجاب، ولكنّ القطب العربي في هذه اللحظة التاريخية تحدّده قوى سالبة، تجعله ذا أهمية رغم ضعفه، مثل الثقب الأسود الذي يبتلع ما يقترب منه. وما ذلك لقصورٍ ذاتي فيه، وإنما لأنه حيل بينه وبين ذاته التاريخية. فعلى الصعيد الجيوسياسي، لم يعُد لأي دولة عربية وزنٌ إقليمي معتبر. فلم يقف الأمر عند انهدام الجدار الذي يفصل بين أرض فارس وبلاد العرب، بل أيضًا تفتّت من كثرة الصدأ المرساة العربية التاريخية المتمثّلة في مصر. وسوف تتابع مصر تقلّصها إلى أن تشهد ثورةً حقيقية نرى مفاعيلها تتشكّل بهدوء. غير أن هذا التشكّل على نار بطيئة معرّض لأن يتجلّى على شكل انفجاراتٍ تزيح الوشاح عمّا يُقال عن طبيعة الشعب المصري وثقافته. فالثقافات لها أسرارها الخاصة في الغضب وتحويله إلى حراكٍ سياسي وثوري.

وكان آخر ذلك الولوج في اليمن، خاصرة الجزيرة العربية المشرفة على مدخل إفريقية العربية المسلمة. وتمشي الحالتان اليمنية والسورية بنوع من التوازي، يعزّز كل منهما الآخر سلبًا وإيجابًا، ليشكّلا مواضع إنهاك لكل من يفكّر بإمكان حسم الأمر فيهما حسمًا بعيدًا عن الإرادة الشعبية المستترة وراء الصراع وصياغة محدداته .

رابعًا: الموقف من ثورة الربيع العربي

الربيع العربي حقيقة، وثورة الشعوب العربية ثورة وعي بدورٍ تاريخي مفقود، هو مسلمٌ في هويّته الحضارية، وعربيٌ في صبغته الثقافية، ومحلّي في خصوصياته الوطنية؛[17] واللغط في ذلك تمحور حول نظرات

الربيع العربي حقيقة، وثورة الشعوب العربية ثورة وعي بدورٍ تاريخي مفقود، هو مسلمٌ في هويّته الحضارية، وعربيٌ في صبغته الثقافية، ومحلّي في خصوصياته الوطنية

ضيّقة . والمعنى العملي هو أنه يرصف هذا الربيع حراك عربي إسلامي على الصعيدين الشعوري والذهني، وحقل تحرّك جيوسياسي على المستوى الإقليمي، وظروف قُطْرية تحدّد الأولويات المباشرة للحراك. ويشار إلى أن هذا الحراك يريد أن يعبّر عن نفسه تعبيرًا حضاريًا أثيريًا متناغمًا مع الإيقاع العالمي غير منفصل عنه، لا تعبيرًا أيديولوجيًا كما تحسب الجماعات الإسلامية الكبرى، ولا تعبيرًا فقهيًا كما تحسب الفرق المتمدرسة فقهيًا، ولا مناطحة كما تنحو مجموعات الغلّو.

الظهور العربي المسلم الذي فاجأنا هو طبيعي لو أصغينا إلى التاريخ وتحسّسنا نبضه. والمسلمون العرب اليوم يعيدون كتابة تاريخهم، ويغيرون التوازنات العالمية بعد ثلاثة قرون: قرن اللافاعلية الذي تلاه قرن الغياب الذي تلاه قرن الضياع؛ وهكذا رأينا أنفسنا فجأة قبالة مواجهة مصيرية، لم تكتمل عندنا أدوات التعامل معها، وإن كانت ثمة تراكمات معتبرة عند النخب.

كان ممكنًا أن تكون مسيرة الربيع العربي أكثر وردية، ولكن حال دون ذلك عاملان في الفضاء الخارجي، وعاملان في الفضاء

الإقليمي، وثلاثة عوامل في الفضاء الداخلي. العاملان في الفضاء الخارجي هما: (1) العامل الإسرائيلي على الصعيد الحضاري، إذ كان ثمة احتمال أن تتعامل الولايات المتحدة الأمريكية مع الواقع العربي الجديد ببراغماتية، وأن تطوّعه تطويعًا هو أقلّ كلفة من المواجهة المفتوحة حال دونه الذعر الإسرائيلي [18]؛ و(2) العامل الروسي على الصعيد الجيوسياسي، والطمع بالعودة العالمية للنفوذ القيصري.

العاملان في الفضاء الإقليمي هما: (1) الصعود الإيراني الذي تحصّل بأسباب مفهومة تزاوج فيه التماسك الثقافي، مع الدافع الديني، مع الإعداد المادي، واجتمع مشروعها والطمع بالنفوذ الإمامي العالمي (لأول مرة في التاريخ) مع الطمع القيصري. و(2) الأفول الخليجي الذي تحصّل بأسباب مفهومة من الاغتراب الثقافي عن العروبة ولغتها، وتحجير الإسلام بعيدًا عن عالميته، واتكالية مادية على مستغلّيه، وغياب مشروع لمعظم دوله، أو أنه مشروع سلبي يرعى قوى الردّة السياسية التي تمشي في عكس اتجاه حركة التاريخ.

أما في الفضاء الداخلي فاجتمعت ثلاثة عوامل: عامل طغيان الاستبداد المحليّ على الصعيد السياسي، وعامل الأصولية العَلْمانية على الصعيد النخبوي، وعامل الحرفيّة الدينية على مستوى الحراك الثوري. إشكالية

الاستبداد المحلّي له أسبابه الداخلية، وتتعلّق بمستوى التثقّف والشروخ الاجتماعية والإرث الطائفي في المنطقة. أما إشكالية الأصولية العَلْمانية فتتمثّل في التعلّق بنماذج تاريخية أفَلتْ من البلاد التي نشأت فيها أصلًا، وبالذهول عن مطلب العامة ووزن الأنساق التاريخية للمنطقة. أما إشكالية الحرفيّة الدينية فتكمن في استحياء أضيق المسالك -نكايةً ورفضًا للاستحواذ السياسي والاعتداء على الفضاء الاجتماعي الديني- التي كانت هامشيةً في تاريخنا، وتصدّر هذا المسلك لطريقة الفهم في المجال السياسي الموضع الأرحب للنسبية.

5 - الخيارات الأمريكية في المسألة الشامية

كان ما سبق رسمًا للمشهد في بلاد الشام، استحضر أبعادًا عدّة ليساعد على فهم الخيارات الأمريكية. فمن جهة، تدرك الولايات المتحدة الأمريكية تراجع الثقل الإسرائيلي، وأن التزاماتها أصبحت دَينًا مُرهقًا يزداد حجمه باستمرار، وأنّ تلك الدولة أصبحت عاجزة عن تقديم الخدمات، بما تمثّله من استطالة إستراتيجية في العمق العربي وما حوله، عجزًا له أسبابه الديموغرافية والجيوسياسية، وغير ذلك. ولا غرابة إذن أن نطقتْ إدارة أوباما في نقد السلوك الإسرائيلي بما لم يكن متصوّرًا من قبل. والأهم من ذلك أنّ النخب اليهودية في أمريكا أصبحت تدرك إشكالية السياسات الإسرائيلية التي سيطر عليها اليمين إلى حدّ كبير، وأنه ليس في الصالح اليهودي العام، بل من أخطر ما يهدّده.

ولكن لا يمكن للولايات المتحدة أن تخذل إسرائيل خذلانًا كاملًا، ومن أسباب ذلك الوزن الكبير للوبي اليهودي في الانتخابات، إلى جانب الخدمات الجليلة التي تقدّمها إسرائيل لأمريكا على صعيد التكنولوجيا الحربية والدواء والبحوث العلمية، إضافة إلى خدمة جليلة في حقل معلومات الاستخبارات في البلدان العربية. والأهم من ذلك كله ينبغي تذكّر أنّ ثمة وزنًا ثقافيًّا يهوديًّا في الولايات المتحدة يتحرّك على مستوى اللاشعور (عبر قنوات ليبرالية ويسارية، وعبر قناة اليمين المسيحي أيضًا)، فالثالوث الثقافي الأمريكي المتمثّل في الليبرالية/ الرأسمالية/ البروتستانتية هو يهودي أكثر من كونه مسيحيًّا.

ويمكننا عند هذه النقطة فهم معقولية الخيار الأمريكي. فثمة حركة تحرّر عربية ذات صفة إسلامية حضارية على مستوى الأعماق، بغض النظر عن طفوها سطحًا أم لا، وبغض النظر عن قيادتها من تيّار الوسطية الإسلامية أم استلبتها الحرفية، أم عادت إلى أيدي وطنية غير أيديولوجية لا تعادي ثقافة شعبها. وهي حركة تحرّر سوف تلتقي ضرورةً مع الصعود الإقليمي للمشروع التركي، فتزيده قوة، وتعطيه العمق البشري والجغرافي، إضافة إلى الوزن السياسي.

وإذا افترضنا أنّ توجه حركة التحرّر العربي لا يصدم تمامًا الأولويات الأمريكية لكنه لا يماشيها، فهذا التوجّه يتصادم تأكيدًا مع المشروع الإسرائيلي. وبالنسبة لأمريكا هناك قوة صديقة تذبل، ويخفّ وزنها، وتتناقص المنافع المرجوة منها من طرف، وهناك صعودٌ عربي من طرفٍ آخر. وهكذا

يبدو خيار محاولة الإعادة إلى القفص معقولة من خلال الاستعانة بعملاء ثقافيين وبأقليات مذعورة تآكلت وطنيّتها. ومن الخارج، يسهم التعاون مع إيران في تحقيق توازن إستراتيجي داخل الفضاء المسلم، ولاسيما أن إيران الشيعية تمثل عنصرًا من النسيج المجتمعي، فيكون له فرصة الديمومة أكثر من العناصر الغريبة من خارج البيئة.

إضافة إلى ذلك، ليس ثمة طريق عملي لإلغاء المشروع النووي الإيراني. فالإزالة العسكرية غير ممكنة ضمن المعادلة الدولية، إذ معظم الدول لا ترى في امتلاك إيران تهديدًا لها، بل هناك دول ترى فيه قضمًا مرغوبًا فيه للقوة الأمريكية. ولذا، فالخيار الأمريكي العملي هو تأخير المشروع الإيراني النووي وتحجيمه ومراقبته. وفي النهاية، يمكن أن يكون النووي الإيراني نافعًا (من وجهة النظر الأمريكية) بعد ترتيب الاتفاقات إذا وازنت الصعود التركي، وإذا ترافقت الموافقة عليه مع إعادة الدور الإيراني إلى حاله أيام الشاه لحصار روسيا، ولتكون رأس حربة قريبًا من القوقاز، وشرطي المنطقة العربية المتمرّدة.

فما دامت الكتلة الكبرى من المسلمين تحاول النهوض والاستقلال والإمساك بزمام الأمور، فهل ثمة أفضل من موازنة ذلك بزجّ إيران، ولو أنّ تعمُّم قادته مكروه من ناحية الذوق الأمريكي؟ فهو ميزة في فتّ عضد الاجتماع العربي. وللنفخ في نار الصراع الطائفي الإقليمي منافع كثيرة، فمن وجه فيه احتواء متعدّد، أو استنزاف متعدّد، لإيران نفسها التي قد يكون الزجّ بها أمضى ما يؤخّر برنامجها النووي. وهو استنزاف للقوى اللبنانية التابعة لإيران، ولقوى الثورة السورية أيضًا، وهي التي لم تنل الإعجاب الأمريكي يومًا. وإذا ساعد الزجّ بإيران وتعويم المنطقة على استنزاف تركيا، فذلك هدف كان عصيًّا على التحصيل. ولولا أنّ الجهل الداعشي تجاوز الحدود المقبولة لما تقرّر مواجهته. وعلى كل حال، لم تتمّ المواجهة إلا من خلال عنوان الحرب على الإرهاب الذي أهمل تمامًا أصل مطلب الثورة، وقضية الانعتاق من ربقة طغيان استبدادي هدّم البلد، وشرّد سكانه، وقتل منهم الأعداد الكبيرة.

ويضاف إلى ذلك أنه أصبح سائغًا بعد كمون الكفاية الذاتية الأمريكية في أمر الطاقة أن يتمّ خلخلة الاستقرار الخليجي، ولاسيما أن النظام السياسي لأكبر دولة فيه قد ترهّل، ووصل نقطة اللاعودة. ومن وجهة النظر الأمريكية، ربما فسحت فرصة نادرة للدفع باتجاه تطبيع ثقافي في الدولة الممسكة بأرض الحرمين الشريفين، زيادة على الارتهان الاقتصادي والارتهان السياسي، لأن الارتهانين الاقتصادي والسياسي لا يستقرّان إذا لم ينضمّ إليهما ارتهانٌ ثقافي.

المفارقة أنّ الخيار الأمريكي المتّبع الذي قد يبدو معقولًا على المستوى القريب، والذي يمكن أن تُجلب له مسوّغات كثيرة، هو أيضًا مرشّح لأن يفرز تناقضات تتفلّت من اليد الأمريكية، وهذا هو الراجح. ليس من مبالغة القول أن العالم تغيّر، والأمة برمّتها هي في حالة ثورة على نحوٍ أو آخر، ولا تَحُول دون رؤية ذلك إلا بلادةُ الحسّ التاريخي والارتهان للّحظة. وكأنه قضى القدر أن تكون بلاد الشام مهد أول تمكّن سياسي للأمة، وأن تكون ثانية الموضع الذي تتلاطم فيه القوى

العالميـة وتعجز، إن هذا القدر مفهوم ومفسّر ثقافيًّا وجيوسياسيًّا.

خاتمة

اقتضى تحليل القضية السـورية في سياقَيها الـدولي والإقليمـي أن يتـمّ التذكـير بطبيعـة المنظومـة العالميـة التـي ترعاهـا الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، تلـك المنظومـة التـي تحـوي تناقضـات في داخلهـا، وتجعلها في آنٍ واحـد وافـرة القوة سـابغة التأثـير ومعرّضة للاختـلالات. ومهّـد هـذا لمناقشـة أوجـه الوهـن الأمريكـي والتراجـع البطـيء في إمكانياتهـا، وبـروز منافسـين إقليميين، وهـم على عتبة إنهـاء احتكار السـيطرة الأمريكية. وتكمـن المفارقـة في أنّ العجز النسـبي الذي تبديـه الولايـات المتحـدة الأمريكيـة متزامنًا مـع صعود قوى فتيّة من شـأنه أن يسـارع في تقليص الهيمنة العالمية للمشروع الغربي. وفي ظلّ هذا يتشكّل عالمٌ جديد متعدّد الأقطاب، لكلّ قطبٍ خصوصيّته من ناحية اسـتقلاليّته وكمون قوّته. وفي حين يتميّز القطب الصيني أو الهنـدي أو الـروسي أو الأوربي بقـوة ذاتية تكبُر أو تصغر- ينفرد القطب المشرقي المسلم بكمـون بعث حضـاري. وهذا هـو التهديد الحقيقـي الذي يشـكّله الربيع العـربي، وهذا ما يجعل الحالة السـورية -مركز بلاد الشام- محطّ الأنظار، كونها عقدة إستراتيجية مجاورة لاسـتطالة المـشروع الغـربي في المـشرق. وإن أي نجـاح لهذا الملف سـتنعكس أشـعته على المنطقة أجمَع، وتفتح قنواتٍ لانسياح الكمون التركي، وتهذّب التوسّـع الإيراني التمزيقي، مما يدفع بلدان الأكثرية المسـلمة إلى استرجاع (تموقعاتها) الجيوسياسـية والاقتصادية إلى ما قبل فترة الاستعمار.

المصادر والمراجع:

1- Gelvin James L. The Modern Middle East 3rd ed. Oxford University Press 2011

2- Quijano Anibal and Immanuel Wallerstein. 1992. "Americanicity as a Concept or the Americas in the Modern World-System. International Social Science Journal 42:549557-.

3- في سنة 2008 بلغ عدد الأساتذة في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية ومعاهدها 1.3 مليون أستاذ، نصفهم تقريبًا في جامعات مانحة لدرجة الدكتوراه. National Education Association Full-time and Part-time Faculty Advocate .Spring 2010

4- The Geopolitics of the United States The Inevitable Empire. Stratfor Global Intelligence Aug. 24 2011.

5- Ritzer George. Enchanting a Disenchanted World: Revolutionizing the Means of Consumption. SAGE Publications 1999.

6- See for example "He'll be caned. Who cares?" The Independent 18 April 1994.

7- The War Against the Islamic State Is About to Hit $1 Billion. Jessica Schulberg. New Republic Sep 30 2014.

8- Special Warfare: The Missing Middle in U.S. Coercive Options. By Dan Madden Dick Hoffmann Michael Johnson Fred Krawchuk John E. Peters Linda Robinson Abby Doll. Research Report 828 RAND 2014.

9- للتوسّع في هذه النقطة، انظر:
Global Trends 2030: Alternative Worlds. .National Intelligence Council Dec 2012

10- Khatkhate Deena. "No Need for Defenders." Economic and Political Weekly Vol. 27 No. 34 (Aug. 22 1992) p. 1776.

11- Levy Johnathan. "Accounting for Profit and the History of Capital." Critical Historical Studies Vol. 1 No. 2 (September 2014) pp. 171214-.

12- كثرت الكتابات حول هذه النقطة بين من ينبه إلى تغيّر البيئة التي تتحرّك فيها الولايات المتحدة الأمريكية، ومن يؤكد امتلاكها أسباب الاستمرار؛ انظر مثلًا:

Nye Joseph S. The Paradox of American Power. Oxford University Press 2002.

Zakria Fareed. "The Future of American Power: How America Can Survive the Rise of the Rest." Foreign Affairs May / June 2008.

Wallerstein Immanuel. The Decline of American Power: The U.S. in a Chaotic World. New Press 2003.

13- Kaplan Robert D. The Old Order Collapses Finally. Stratfor 212014-04-.

14- Wade Robert H. "Emerging World Order? From Multipolarity to Multilateralism in the G20 the World Bank and the IMF." Politics & Society September 2011 vol. 39:3 pp. 347378-.

15- Dugin Alexander. "The Multipolar World and the Postmodern." Journal of Eurasian Affairs vol. 1:1 2013.

16- التفسير الطائفي يحلو للعديد من المحللين الغربيين، فيخلطون بين البعد الطائفي الذي تفجّر كنتيجة، وبين جعله سببًا أساسًا ومُنشئًا على أنه انعكاس لتخلف الثقافة المسلمة. انظر على سبيل المثال:

The Political Geography of Syria's War: An Interview With Fabrice Balanche Carnegie Endowment 30-01-2015.

17- انظر كتاب جون كول، وهو متابع حثيث للتطورات التي تجري في المشرق، إذ يؤكد عمق رغبة التغيير عند شعوبه. غير أنه يعترف أنه يركز على القطاعات الليبرالية واليسارية ويتعاطف معها فحسب:

Cole Jaun. How the Millennial Generation is Changing the Middle East: The New Arabs. NY Simon & Schuster 2014.

18- cf. Kaplan Robert. The Hard Hand of the Middle East. Stratfor 212014-08-.